آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية

تصدر عن دائرة البحث العلمي والدراسات بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

السنة الخامسة ـ العددان العشرون والحادي والعشرون ـ ذو الحجة ١٤١٨ هـ ـ ابريل (نيسان) ١٩٩٨م

الحرب الإعلامية والافتراءات الظالمة لتشويه صورة الإسلام في البوسنة

الأستاذ الدكتور : محيي الدين عبد الحليم - جامعة الأزهر - كلية الإعلام - القاهرة

لفت انتباهي، وأنا أتجول بين المكتبات ودور النشر والمؤسسات الإعلامية في البوسنة، ما نشرته صحيفة ليلان (فْيجـ) البوسنية، واستعرضت فيه محتويات لكتاب أصدره البروفيسور ميرولوت بيفتش أستاذ الاستشراق في جامعة بلغراد، وهو كتاب يحوي كمًا هائلاً من الافتراءات والمعلومات المغلوطة، والدعاوى الباطلة، التي لا تستند إلى منطقٍ سليم، أو مصدر موثوق به حول الدين الإسلامي، والعلاقات الأسرية، ومكانة المرأة في الإسلام، ادعى فيه المؤلف، الذي يفترض فيه العلم والتجرد والموضوعية، أن من خلفاء المسلمين من عاشر مائتي امرأة إضافة إلى أربع زوجات يعشن معهم فترة زمنية محددة، تنتهي بانتهاء حاجتهم الجنسية منهن، ثم يطلقونهن ويستبدلونهن بأربع نساء أخريات وهكذا!!!

ويعلق الكاتب على ذلك بقوله: إن المسلمين قد درجوا على امتهان المرأة واحتقارها، والتعامل معها كمخلوق لا قيمة له؛ وشن ميرولوت هجومًا عنيفًا على الشريعة الإسلامية التي عدّها السبب الرئيس في تخلف المسلمين، والمعوّق الحقيقي لتقدمهم وتحضرهم، وأن أفكار التطرف والجهل إنما هي جزء من مكونات هذه العقيدة، ولن يكتب لهؤلاء الرقي والتقدم إلا إذا تخلصوا من هذا الفكر والخرافات

والأساطير التي يتمسكون بها. وليس أدل على ذلك من أن المسلمين يأتون في مؤخرة دول العالم، وأن الفتن والحروب والصراعات لا توجد إلا في بلادهم، وأن أغلب الشعوب الإسلامية تعيش تحت خط الفقر.

وفي أثناء وجودنا في زغرب تصادف أن شاهدنا في التلفاز الكرواتي برنامجًا حواريًا أجراه المذيع مع سفير سلوفينيا في زغرب، وكان مقدم البرنامج يسأل السفير عن الأشياء التي لفتت نظره، وجذبت انتباهه، وأعجبته في مدينة زغرب، فأجاب السفير بقوله إن أكثر ما شدني في هذه المدينة الجميلة خلوها من أي أثر للإسلام والمسلمين يشوه هذه المدينة البديعة! وقد ربط هذا السفير اللمَّاح بين كل شيء جميل ونظيف ومنظم وعدم ارتباطه بالإسلام أو المسلمين، وآثارهم وسلوكياتهم التي تترك بصمات سلبية حيثما وجدوا.

هذه نماذج قليلة من حملات منظمة يتم إعدادها وتوجيهها إلى الجماهير البوسنية، بصورة يومية في وسائل الإعلام، وقنوات الفضاء المحيطة بهم، التي يتم تقديمها من خلال قوالب درامية أو حوارية أو إخبارية.

ولست هنا في معرض ذكر هذه البرامج والفقرات والمقالات والأحاديث الصحفية أو الإذاعية، التي يتم تقديمها بصورة مباشرة أو غير مباشرة من خلال الأعمال الصحفية أو الفقرات الإذاعية، فهي حملات تمّ الإعداد والتخطيط لها بخبث شديد: لبثّها وتوجيهها إلى الشعب البوسني عبر شاشات التلفاز وموجات البث المباشر، أو على صفحات الجرائد، حيث يتم الربط بين الإسلام والدكتاتورية تارةً، أو بين الإسلام والجهل تارةً أخرى، وبينه وبين الإرهاب وسفك الدماء، بل بينه وبين كل مظاهر التخلف والفساد. وهم في كل مرة يأتون بنماذج صارخة من بلاد العرب والمسلمين: ليدللوا على صحة أقوالهم، فهم لا يألون جهدًا في الحصول على المعلومات التي تؤكد وجهات نظرهم من الصومال وأفغانستان والجزائر والعراق والسودان وغيرها من بلاد المسلمين.

وقد قال لي أهالي البوسنة إن هذه الحملات توجه كل يوم ليس من إذاعات وصحف صربيا وكرواتيا فقط، ولكن من مختلف وسائل الإعلام وأجهزة البث المختلفة التي تحيط بهم في كل جانب. فالقنوات الأوربية من فرنسا وألمانيا واليونان وأقمار الاتصالات والإذاعات لا تتوقف بالليل ولا بالنهار، وتتوافر لها الكفاءات البشرية والتقنيات المتقدمة، وترصد لها الأموال الضخمة... وإذا كان منهم من لديه القدرة على كشف الأكاذيب والافتراءات التي توجه للإسلام والمسلمين، فإنه لا توجد لديه الإمكانات والسبل الآيلة لتحقيق ذلك. وأنه لا يوجد خليفة للمسلمين قد عاشر مائتي امرأة

كما يدّعون، أو كان يستبدل أفواجًا من النساء بأفواج أخرى بين فترة وأخرى، كما لا يوجد في الإسلام أي إهدار لكرامة المرأة أو مساس بوضعها أو إهانة لكيانها، وإذا كان منهم من يعرف أن ما قاله سفير سلوفينيا في زغرب افتراءات محضة تنمّ عن جهل وسوء قصد قوي مدفوعًا بكراهية شديدة وحقد صليبي أسود، فالإسلام دين العلم والقوة والتسامح، يحض أهله على احترام البشر جميعًا بغض النظر عن عقائدهم ومذاهبهم وأفكارهم، وهو دين يحض أهله على احترام العهود والمواثيق، وليس دين تطرف وتخلف، كما يدعي هذا السفير، فإن كثيرًا من البوسنيين يجهلون الحقائق حول الدين الإسلامي، وتنقصهم المعرفة الصحيحة والفهم السليم لأصول الدين، وللتاريخ الإسلامي، ومقاصد الشريعة، ومبادىء الفقه. ومن ثم فإن تأثرهم بما يسمعون ويشاهدون ويقرأون احتمال قائم، إذا كان يقدم لهم بصورة فنية وبأسلوب جذاب، ولا سيّما أن أهالي البوسنة قد حُرموا من حق المعرفة الصحيحة لهذا الدين، أو حتى الاقتراب منه سنوات طويلة، وبالتالي فإنهم يمكن أن يقعوا ضحايا لهذه الحملات الخبيثة والمحاولات المسمومة، وخصوصًا إذا أدركنا أنه توجد من بينهم شريحة كبيرة مبهورة بالنمط الغربي، ومتأثرة بالأسلوب الأوروبي في التعامل مع مختلف ظواهر الحياة: فهم أوروبيون أولاً وقبل كل شيء، وهم بعيدون عن مصادر المعرفة الصحيحة ومراكز الثقافة الإسلامية الكافية.

وإذا كانت المؤسسة الدينية تقوم بواجبها على أكمل وجه من خلال رجالها المنتشرين في كل المدن والقرى البوسنية: هؤلاء الرجال الذين يلقون احترام الجميع، حتى العناصر غير المتدينة والعلمانية، إلا أن دورها ما يزال محصورًا في المساجد والمعاهد الدينية، وهي لا تستطيع أن تنافس وسائل الاتصال الجماهيري، التي تتمتع بقوة تأثير، وسعة انتشار كبيرة؛ تلك الوسائل التي تصل إلى المنازل، وتدخل غرف النوم، وتتسرب بإغراءاتها المتعددة، وأساليبها المتنوعة إلى عقول الأطفال والشباب. ويكفي أن نعرف أن البوسنة محاطة بعدد من الإذاعات التنصيرية التي توجه بثها باللغة البوسنية واللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية، وهذه الإذاعات الدولية تصدر عن الاتحادات الإعلامية المسيحية، منها الرابطة الدولية الكاثوليكية للراديو والتلفزيون، والرابطة العالمية للإذاعة المسيحية، و الرابطة الدولية للإذاعيين المسيحيين، و المنظمة الدولية للإعلام المسيحي، وتوجه الجهود الإذاعية المسيحية إلى الشعوب الإسلامية في البلقان من خلال مراكز الإنتاج واستديوهاته، ومن خلال الأقسام الدينية في الإذاعات

الحكومية، وهذه الاستديوهات مجهزة تجهيزًا كاملاً، وموجودة في المناطق المستهدفة، وتختص بإنتاج المواد الإذاعية وإرسالها إلى المحطات الإذاعية المسيحية؛ كي تبثها إلى هذه المناطق. ولعل من أشهر استديوهات الإنتاج تلك الاستديوهات التابعة لإذاعة صوت الإنجيل Voice of Gospil , التي تمتلك عددًا كبيرًا من استديوهات الإنتاج الإقليمية.

إضافة إلى البث الإذاعي المسيحي هناك البث الإذاعي العام من خلال المحطات الكبرى، التي لا تتورع عن الغمز واللمز وتحميل الإسلام والمسلمين كل مصائب الكون، وترسيخ صورة ذهنية كريهة عنهم بين صفوف الرأي العام المسلم، ولا سيّما هؤلاء المترددين الذين لا يعرفون عن الإسلام إلا القشور، وهم عرضة للاستقطاب والغواية بفعل هذه الحملات المنظمة.

فإذا أضفنا إلى الإعلام الإذاعي الموجه إلى شعب البوسنة القنوات الفضائية، ووكالات الأنباء الدولية المسيطرة، التي تستمد منها الصحافة البوسنية الأنباء والمعلومات، وتنقل عنها الأحداث العالمية والتعليقات السياسية، نجد أن الشعب البوسني يقف بمفرده في مواجهة كل عمليات غسيل الدماغ والحرب النفسية في مقابل إعلام إسلامي عاجز عن المواجهة وعاجز عن المنافسة.

ويكفي أن نعرف أن شخصية صهيونية واحدة هي شخصية روبرت مردوخ يملك ٣٠٪ من أكبر الصحف البريطانية مثل التايمز والصنداي تايمز، ونيوز أوف ذي وورلد، كما يملك ٤٠٪ من محطة سكاي التلفزيونية البريطانية، ويعتزم شراء المزيد منها.

إن الحل الوحيد يكمن في تحصين الجمهور المسلم في أوروبا والبلقان بصفة عامة، وفي البوسنة بصفة خاصة ضد هذه الخطط الخبيثة والمحاولات المغرضة، وذلك من خلال استراتيجية دعوية إعلامية شاملة، بعد أن كشفت الأبحاث والدراسات والوقائع التي تدور على الساحة الدولية عن ازدهار أجهزة التبشير ووسائل الاتصال التي تدعو إلى الرذيلة، وتحمل دعاوى الشر، وتثير العنصرية، وتشعل الأحقاد بين الحكومات والشعوب الإسلامية، وتسهم في تدمير العلاقات بين أبناء العقيدة الواحدة بفعل ما تزرعه من بذور الفتن، وما تبثه من الحقد والكراهية، مستهدفة من وراء ذلك تحقيق مصالح اقتصادية، أو مكاسب سياسية معتمدة على ما تملكه من تقنيات حديثة وتكنولوجيا متقدمة، مستثمرة في ذلك أحدث معطيات العصر من علوم الاتصال للسيطرة على الرأي العام، وغسل الأدمغة، وتكوين الاتجاهات المتوافقة مع فكرها وأيديولوجياتها، مستندة في ذلك إلى انعدام العزلة في ملكية مصادر المعلومات وفقدان

السيطرة عليها وعدم التوازن في توزيعها، مما يؤدي إلى نقص المعلومات اللازمة عن الإسلام والمسلمين، أو تقديمها بصورة مبتورة أو مشوهة، منتهجة في ذلك الأساليب غير الأخلاقية كالكذب والمبالغة والتجاهل المتعمد للحقائق، وتقديم الرأي على أنه حقيقة.

إلا أنه إذا تمّ وضع خطة عملية سليمة، وتمّ إعداد حملات إعلامية متكاملة الأبعاد ومتناسقة التخطيط، تستهدف عقل الإنسان المسلم في البوسنة، فإن استراتيجية الدعوة والإعلام الإسلامي سوف تتمكن من الحيلولة دون اختراق هذا العقل، أو استثمار جهله بحقائق الإسلام وأصوله في هذه المنطقة، التي عاشت معزولة عن عالمها الإسلامي ما يربو على نصف القرن من الزمان.

وهذه العملية بحاجة إلى إعادة النظر في كل ما يكتب ويذاع عن الإسلام والمسلمين، وإعداد الردود المناسبة لتوضيح الحقائق وتصحيحها.

كما أنها بحاجة إلى ترجمة الإصدارات المتميزة من المطبوعات والبرامج والفقرات التي تتناول الإسلام بصورة موضوعية وأمينة، وإعداد الأعمال الجيدة لتكون جاهزة للمسلمين وغير المسلمين هناك باللغة البوسنية؛ لأن كثيرًا من الناس لا يعرفون عن الإسلام إلاّ القليل، وقد لا يعرفون عن القرآن إلا معلومات محدودة، وربما غير صحيحة.

ولتحقيق هذا الهدف لا بد من إقامة جهاز دولي قوي للإعلام والدعوة في مدينة سراييفو، يأخذ على عاتقه وضع الخطط، وإعداد البرامج، وتهيئة المناخ الصحي: لتنفيذها ومتابعتها في مختلف المراحل، وكل الظروف مهيأة لتمكين هذا الجهاز من أداء دوره وإعطائه الفرصة لتحقيق النجاح بفاعلية واقتدار، وذلك لمواجهة الحملات الإعلامية المضادة للإسلام، وتصحيح صورته في أذهان الناس، وجمع شمل المسلمين في البوسنة وفي منطقة البلقان، وتوحيد صفوفهم وتصفية الخلافات بينهم، وتصحيح الأخطاء وتقويم السلوك، الذى قد يصدر عن بعض المسلمين ممن يسيئون إلى الإسلام هناك، سواء عن جهل بأصول هذا الدين أو عن قصد، وكذلك تزويد الرأي العام المسلم وغير المسلم بالرؤية الإسلامية للقضايا المعاصرة، وتعريف العالم بموقف الإسلام من العقائد والأديان والمذاهب الأخرى، وتقديم البديل الإسلامي للقضايا التي استعصت على الحل في المجتمعات المتقدمة، وخلق جسور من التعاون مع أجهزة الإعلام والرعاية والتربية وقادة الفكر، وإرساء نظام إسلامي قوي للاتصال الدولي والتنسيق مع المراكز الإسلامية في غرب أوروبا والبلقان بمختلف الطرق والأساليب المتاحة كافة.

إن الأمثلة صارخة على الاعتداءات والتجاوزات والافتراءات التي توجه إلى الإسلام والمسلمين من مختلف الطوائف والمذاهب والملل والنحل، ولم لا وهو الدين الخاتم الذي كرم هؤلاء النصارى، وحفظ لهم كرامتهم، ورفع منزلتهم، وأوصى بهم.

وهو الدين الذي يرفض الشرك بالواحد الأحد، وما أكثر المشركين الذين يلبسون شتى الأقنعة، ويتغلغلون في مختلف المدن والقرى البوسنية.

وهم يكرهون الإسلام؛ لأنه يحارب الإلحاد والزندقة، ويرسخ معاني التقوى والصلاح، ويرفض التطرف، ويلبي فطرة الإنسان، ويحارب الرذيلة بكل أشكالها، ويحافظ على العقل من المنكرات والمسكرات والمفترات، ويدعو إلى الفضيلة، ويمنع الفساد في الأرض، وهؤلاء وهؤلاء أعدادهم كبيرة في صربيا وكرواتيا والجبل الأسود، بل في البوسنة أيضًا، إنهم يكره بعضهم بعضًا ويحقد بعضهم على بعضهم ويحارب بعضهم بعضًا، لكنهم يجمعهم محاربة الإسلام، فيعملون على إجهاض دعوته جهلاً بغير علم، وعدوًا بغير فهم، تلبية لنداء الشر في نفوسهم والحقد في قلوبهم.

وإذا كانت الحرب العسكرية والمواجهة الحربية قد كشفت القناع عن حجم الكراهية والبغضاء الذي يكنه هؤلاء جميعًا ضد كل أثر إسلامي في البوسنة، واتفاق الفرقاء على تحطيم المساجد وحرق المكتبات، وقتل الدعاة وتدمير المعاهد الدينية، فإن الحرب الإعلامية قد انطلقت الآن بكل قوة في كل مكان هناك بأسلوب منظم، وخطة مبرمجة، وتقنيات عالية. وعلى المؤسسات الإسلامية أن تتنبه لهذه الحرب التي تشكل خطرًا داهمًا على هؤلاء الذين صمدوا وناضلوا وضربوا أروع الأمثلة في البطولة والفداء.